أنا وقلمى ....

ساعة كاملة وهو يحاورنى، أنا من جانبى مصر على أن أقضى السهرة وحدى فى خلوةٍ بعيدًا عن كل الناس. ومن بينهم أهلى. لا أريد أن أستمع لشريكتى ولا لأى من أبنائى أو أحفادى، وهو من ناحيته يلح فى أن نقضى السهرة كعادتنا معًا. أرفض دعوته تارة فى رفق ولين، وتارة أخرى في عنف وشدة وهو فى مكانه على مكتبى لا يتحول يقطب جبينه تارة ضيقًا بى، ويبتسم أخرى إغراء لى.

وأخيرًا سألنى عن السر فى تغير حالى وعدم رغبتى فى قضاء السهرة معه، فقلت له أتتجاهل تجاهل العارفين؟ ألست تدرى ماذا جرى؟ فقال إننى أدرى كل شىء، ثم استرسل قائلًا: وهل ما جرى جديد عليكم معاشر الوفديين، ألستم رجال جهاد، وهل لم تصهر كم الأحداث بعد، وهل نسيتم ما أصابكم أيام المغفور لهما محمد محمود باشا وإسماعيل صدقى باشا وما ذقتموه فى عهود حكومات الأقليات فى سنوات 1938 و1944 وما بعدهما وما قبل ذلك.

ألستم قضيتم الشطر الأكبر من حياتكم فى محنٍ ومتاعبٍ، وزعيمكم الخالد سعد كانت حياته في الجهاد كلها محن ما بين نفى وتشريد واعتقال، ومع هذا فأنتم ولله الحمد بخير، فبعد أن حاربكم الزمان بكل سلاح استطعتم أن تجمعوا كلمة الأمة حولكم وأعلنتم فى شجاعةٍ وعزمٍ يوم 8 أكتوبر الماضى إلغاء معاهدة سنة 1936 واتفاقيتى الحكم الثنائى وواجهتم بريطانيا وتحديتموها دون تردد. وكشفتم عن سوء نواياها أمام العالم أجمع، أليس يكفيكم هذا؟ وها أنتم قد خرجتم من الحكم أقوى ما تكونون وأشجع مما تتصورون.

استمعت لقلمى وهو يحاورنى وقلت له إننى لست فى حاجة إلى ما يبعث فى روح الحماسة ويدعوننى إلى التعاليم الوطنية، فالوطنية فى دمى منذ نشأت فى كنف سعد فكف عنى واذهب إلى غيرى وألق عليه دروسك ربما كان فى حاجة إليها فقال ومن تعنى، قلت أنت بمن أعنى جد عليم، فقال أيا فعلت معى فلن أبرح دارًا نشأت فيها ونعمت بين جدرانها بصداقتك واستمتعت بحلو حديثك وأنت قد وجدتنى دائمًا الصديق الوفى، لم أخطئ فى النقل عنك. أحمل حديثك للناس لا أنقص حرفًا ولا أزيد حرفًا، سواء أتحدثت عن قضية بلادك، أو انثنيت إلى شىء من الأدب أو نحوت إلى بحث دستورى أو فقهى، لقد وجدتنى دائمًا الرسول الأمين الذى ينقل إلى قراء البلاغ ما تمليه على فى دقة وأمانة، أليس فى هذا الوفاء كل الوفاء لصداقتك والتعلق بشخصك والإيمان بمذهبك الوطنى؟

فقلت له إنك ولا شك الصديق الوفى، ولكن كيف تريد منى ألا أضيق والوفاء نفسه يقتضينى أن أفعل، فهناك أصدقاء قد بعدوا، أعزاء على النفس والروح، قبل أن يكونوا قادة وزعماء، لهم فى القلب مكانتهم والحرمان منهم مرير، وهو ليس بالأمر اليسير، وأنا قد بلغت الستين وليس فى العمر متسع، وحرمان الإنسان من أصدقائه محنة لا شك فيها، خصوصًا وهم أصدقاء أعزاء أبعدتهم الظروف القاهرة عن العين وإن لم تبعدهم عن القلوب، فكيف يحتمل الإنسان هذا كله؟ فأجابنى فى هدوء ورفق وهل كنت تريدنى على ألا أقضى السهرة معك وهذه حالك؟ لقد حدثتك فهدأت من نفسك وطيَّبت من خاطرك، وقضيت معك شطرًا من الوقت لا بأس به، والآن أتركك لتستريح، وفى الصباح الباكر سأحمل إلى قراء البلاغ حديثى معك، وأحمل إلى صديقيك العزيزين أخلص تحياتك وأعبر لهما عما يكنه قلبك الطاهر نحوهما من حب وتقدير واحترام.

وإلى اللقاء.